

الجلال

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

حَقَّقَهُ وَفَضَّلَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

بِسَرِّهِ عَبْدُ الْغَنِيِّ الْبُسْرِيُّ





وقبل أن نبدأ

هذا الرجل يفوص للدر الفريد !

* الجاحظ : مولده ، ونسبه ونشأته :

كانت البصرة العراقية موئلاً من أعظم موائل العلم ، وبيئة من أخصب البيئات الثقافية يلتقى فيها العلماء والأدباء من مختلف شعوب الشرق في آسيا وإفريقيا ، ويجتمعون بالمرصد أو المسجد - وكانوا يسمون بالمربديين أو المسجديين - وتكون لهم حلقات علمية من أمتع حلقات العلم والدرس والأدب .

● وفي البصرة هذه البيئة الخصبة الآهلة بالعلم والثقافة والمعرفة ولد شيخنا الجاحظ . ولم يعين الرواة وكتاب التراجم سنة مولده على التحديد ، والذي يؤخذ من مجموعها أن الجاحظ ولد في منتصف القرن الثاني للهجرة ، فيما بين سنة (١٥٠ هـ) و (١٦٠ هـ) ، وقد انفرد ياقوت الحموي في معجم الأدباء ، برواية تعين سنة ميلاد الجاحظ وبالتحديد حيث روى أن الجاحظ قال : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة (١٥٠ هـ) وولد في آخرها » . فإذا صحت هذه الرواية يكون شيخنا الجاحظ قد ولد سنة خمسين ومائة على وجه التحديد .

● كانت نشأة الجاحظ في بيت فقير ، مات أبوه منذ حداثة . فكفلته أمه وقامت على رعايته وتربيته ، ولم يكن لديه أى موريقات منه إلا أنه كان يبيع الخبز والسمك بنهر سبجان بالبصرة ، ولم ترفه حياته وتظهر نعمته إلا بعد أن اتصل بكبار رجال الدولة وقربوه منهم واجازوه على كتبه ورسائله .

● لقد اضطربت روايات المؤرخين في أصل الجاحظ ونسبه ، فيذهب بعضهم إلى أنه كنانى لثى من بنى خزيمه والد النضر أبى قريش ، وبنوكنانة بطن من مضريقال لهم : كنانة طلحة . وعلى هذا فهو منحدر من أصل عربى وهذا ما نرجحه .

وذهب آخرون إلى أنه كان مولى ابن القلس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفقيمي فنسبته إلى كنانة نسبة ولاء ، وقيل إن يموت بن مزرع خال أم الجاحظ ، وكان جد الجاحظ أسود اللون ويقال له فزارة ، جالاً لعمرو بن قطع الكنانى .

والذى نميل إليه ونرجحه ، أن أبا عثمان الجاحظ كان عربى الدم والنسبة هذا الرجل الذى كرس جهده ، وحياته لخدمة العرب والعربية ، وترغم أكبر حركة تيار وعى عربى قامت في وجه الشعوبية حتى هدمتها أو قضت عليها ، أنه رجل يغلى في عروقه الدم العربى الزكى ، وتثور في نفسه الغزة العربية الصحيحة .

* ثقافة الجاحظ وأساتذته :

● التحق الجاحظ في حداثته بكتاب من كتاتيب البصرة حتى أجاد القراءة والكتابة ولم يكد يشتد ويبلغ حتى ظهرت عليه علامات النبوغ ، وأخذ يكرس كل وقته لطلب العلم والمعرفة ، ويتلقى العلم والفصاحة شفاهاً من العرب في المريد العراقي ، ويلتقي بالعلماء والخطباء في مجالسهم وحلقاتهم ، فيأخذ عنهم كل ما وعث صدورهم من علم وثقافة .

ولقد أتبع للجاحظ أساتذة أجلاء كانوا غرة دهرهم وآية عصرهم ، يكفي أن نقول أن من بين هؤلاء الأساتذة (الأصمعي) ذلك العالم الأريب الذي كان يحفظ عنه اللغة ، وجمع شتيها في الشجر والنبات والإبل والشاة والوحوش وكذلك (أبو عبيدة معمر بن المثنى) الذي كان يقول فيه الجاحظ : « لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه » ، وله مصنفات كثيرة في مختلف أنواع الحيوان والطيور والنباتات ، ومنهم كذلك (الأخفش) الذي أخذ عنه النحو وعلم التصريف وهو فارس ميدانها ، كما تتلمذ على (أبي زيد الأنصاري) ، و (صالح بن جناح اللخمي) ، و (إبراهيم بن يسار) المعروف بالنظام ، شيخ المعتزلة وإمامهم ، أخذ الجاحظ عنه علم الكلام ، ونبغ فيه حتى أصبح من أعلامه الكبار ، وشيخاً لمدرسة من مدارسه عرفت بالجاحظية ، وقد بلغ من إعجاب الجاحظ بالنظام وإيمانه بعلمه وسعة معرفته أنه قال عنه : أن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام .

من هؤلاء الأساتذة وغيرهم أخذ الجاحظ ثقافته ، وكان شغوفاً بالعلم والقراءة فلم يدع فرصة تسنح إلا انتهزها فيما ينمى هذه الثقافة ويقوئها فأخذ يصب من بحر تلك العلوم والآداب التي شاعت في عصرها ويلتهم إلتهاماً كل ما تقع عليه يده من كتب وما أكثر ما كانت تقع يده عليها منها . إنه كان يقضي ليلاته وأيامه في طلبها يلتمسها في الطريق وفي الحوانيت التي تبيعها . حدث عنه أبو هفان قال : لم أرق قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى أنه كان يكثرى ذكاكين الوراقين ويبيت - فيها للنظر .

● ويبدو أن الجاحظ لم يكن يشغل نفسه بشيء إلا بالقراءة وجمع الكتب من هنا وهناك باذلاً في ذلك كل وقته وجهده ، حتى وصل إلى درجة من الثقافة والعلم لم يدانه أحد إليها ، وروى ياقوت في معجمه فقال :

« كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ،

شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدنيا والدين .

* * *

معنا عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، وكنيته أبو عثمان . والذي سمي الجاحظ لبحر عينه - الرجل الفقير الذى نشأ كادحاً عصامياً يتكسب بيده ، عاملاً صغيراً - مُجدداً طوال يومه ، ولكنه فى أثناء العمل اليومى الشاق كان يسعى للعلم والتعلم ، ويأخذ حظه من المعرفة ، على قدر ما يتسع له وقته .

لقد عاش الجاحظ قرابة قرناً من الزمان . فى عصر من أزهى عصور اللغة ، وفى بيئة تزخر بالعلم والفن ، وفى ظل خلفاء ووزراء يدفعون أمتهم إلى الرقى الأدبى والمادى فترجمت العلوم الأجنبية ، ونضجت العلوم العربية ، والدينية وما تفرع منها .

الجاحظ الذى عاش فى البصرة العراقية وسوقها المربد الذى كان معرضاً لكل جديد من روائع الشعر والنثر .

الجاحظ الذكى اللماح ، الموهوب ، الذى منحه خالقه ذهنًا لا قِطاً ، وذاكرة قوية ، وحافظة أمينة ، وصبراً على التعب والعناء دون كلل أو ملل .

أخذ عن علماء عصره وأدبائه ورواته ، فأخذ اللغة عن فحولها . والأدب عن مبدعيه ، والنحو عن أربابه ، والفقه والحديث عن أشهر الفقهاء والمحدثين ، وكان العلم من هؤلاء الأعلام يعتز بأن الجاحظ تلميذ له .

يتمى الجاحظ إلى فرقة المعتزلة ، وهم فرقة كلامية إسلامية نصبت نفسها للدفاع عن الدين ، وعن العرب ومحاجة أهل الأديان الأخرى ، والمتعصبين للاجناس المعادية . فدرس كل ألوان المعرفة والفلسفة التى استطاع أن يصل إليها ، ولا سيما كتابات أرسطو استعداداً للنضال عن الدين والدياد عن حياضة وحياض أهله .

وأقبل الجاحظ على القراءة لتتسع ثقافته وتعمق بالإندماج فى المجتمع ، واتخاذ كل شىء يقع تحت بصره موضوعاً للدراسة والبحث ، من حيوان ونبات ، وصناعة وصناع ، وكره ، وبخل ، ولؤم ونبل ، وذكاء وغباء ، وخالط الباعة والمجانين . والأدباء والشعراء والملوك ، والوزراء ، وكل ما استطاع لقاءه والأختلاط به من أعضاء المجتمع .

* كتاب البخلاء :

ألف الجاحظ كتباً كثيرة ، منها ما فقد ، ومنها ما وصل إلينا ، ومن هذه كتاب البخلاء الذى نقدمه اليوم .

و « البخلاء » من أجود الكتب المؤلفة ويحق للغة العربية أن تفاخر به - هذا الكتاب الهام الذى جمع فيه الجاحظ أخباراً تتصل بالبخلاء فى عصره ، تناول فيه المتكلمين والمعتزلة ، وقصصاً من أخبارهم فى البخل أشياء كثيرة ، وقيمة هذا الكتاب فى جال لفظه العذب ، واستقامة معناه ، وخصب معانيه ، ودقة تصويره الدقيق الذى لا يقاس إليه تصوير . وهو يعمل على تصوير حياة البصرة وبغداد فى عصره .

والجاحظ ذلك العلامة الموسوعى يمتاز بروح فكاهية متفردة فى كتابته إلى جانب القدرة الفائقة على التحليل والتصوير ، فيمزج الجد بالهزل ، كى يصل من الهزل إلى الجد . كما يقول فى مقدمته لهذا الكتاب .

● إن الجاحظ يؤمن بأنه متى أريد بالمزاح النفع ، وبالضحك الذى جعل الضحك ، صار المزاح جدّاً ، والضحك وقاراً . وقد اجتمعت للجاحظ عدة أسباب للإجادة فى هذا الكتاب الهام ، منها ما أشرنا إليه من خفة ظله ، ومنها نمط حياته التى نشأ وترعرع فيها من حيث اختلاطه بعامّة الناس وملاحظته لآحوالهم وتصرفاتهم ، ولعل الجاحظ هو أول كاتب يهتم بالناس العاديين ويحرص على تدوين أخبارهم وأفكارهم .

ومن أسباب إجادة الجاحظ أيضاً ثقافته الموسوعية الشاملة الواسعة التى حصلها من كثرة القراءة ومن تجاربه الواسعة فى معترك الحياة . هذا كله إلى جانب مقدرة تعبيرية فذة وطبع أدبى أصيل .

لقد تحدث الجاحظ فى هذا السفر القيم عن نوعين من البخل :

أولاً : البخل المرضى .

ثانياً : البخل الصحى .

ونقصد بالبخل المرضى هؤلاء الذين يكتنون الذهب والفضة ، ويتخذون من المال معبوداً ومعشوقاً ، ويبخلون به على أنفسهم وعلى ذويهم ويظنون كل الظن أن المال غاية وهدف فيجعلوا فيهم مغولة إلى عنقهم شحاً وتقيراً وبخللاً ، فالمال مال الله ، هو وسيلة للحياة ، للبناء ، للتعمير ، للاستمرار وللإنطلاق نحو الأفضل بما حلله الله وشرعه .

أما النوع الثاني : فنقصه به الحرص وهو أمر واجب ، فالإسلام يطلب منا عدم التبذير وعدم الإسراف وضرورة الاعتدال في كل أمورنا . « فريم الصناعات » التي تحدث عنها الجاحظ امرأة فاضلة فكرت في أمر ابنتها منذ ولادتها وكانت تدخر لها مبلغاً من المال مع كل خبزة حيث توفر صاع دقيق أو صاعين وتنزل السوق لبيع الدقيق ثم تأخذ ثمنه لتدخره إلى أن وصلت الابنة إلى سن طلبها للزواج ، ووقع الزوج السلي جداً في حبص بيض ، وتواجه مريم الأمر بشجاعة منقطعة النظير فتأخذ المبلغ المدخر لتشتري به كل ما يتطلبه تجهيز الفتاة حتى أدوات زينتها ، ويسأل الزوج مريم : من أين لك هذا ؟ فتقول : من عند الله ! إلا أن الزوج يطلب منها عدم الحديث بالجملة والكلام بالتفصيل فتشرح له .

إن مريم الأم المحنكة الواعية التي عرفت أن عندها فتاة وهي في أمر تجهيزها مسئولية الأسرة قد أعدت العدة ودبرت حالها وبدأت « مشوار » ادخارها منذ ولادة الابنة . يا لها من زوجة رائعة !! إنني لا أعتبر مريم هنا بخيلة بل هي كما وصفها الجاحظ ماهرة بالفعل . فالبخل هنا يحمل معنى الحرص وهو أمر محمود ، لا غضاضة فيه .

ولعل القارئ يلاحظ أنه ابتداءً من قصة (ألى قطبة) يواصل الجاحظ ما جرى عليه في القصص السابقة من قص نوادر البخل وأعاجيبهم في تصرفاتهم وأساليب احتجاجهم للبخل وتأيد مسلكهم في الحرص على المال براهين عجيبة ومضحكة إما لأنها ظريفة أو سخيفة . ونرى بعد قصة [ألى قطبة] احتجاجاً للوجود وتقييداً للبخل براهين عقلية واستشهادات نقلية مما يشكل معرضاً للآراء المتضاربة والأدلة المتصارعة .

ثم رأى شحنا الجاحظ - استكمالاً للفائدة - أن يتبع تلك النوادر التي تضمنت كثيراً من صنوف الطعام واسماؤها التي كانت معروفة ومتداولة في عصره ، وفي كثير منها ألفاظ فارسية وتعبيرات جارية على ألسنة الناس في بيئته في ذلك الوقت - رأى أن يتبع ذلك ببحث مفيد مستفيض - نراه في آخر الكتاب - عن ضروب الطعام عند العرب واسماؤها وما تماردوا وتهاجوا به في صدها .

وأورد الجاحظ في خلال ذلك كثيراً من أشعارهم التي ورد فيها ذكر الطعام والدعوة إليه والوجود به

وقد يظن القارئ لهذا الكتاب أن الجاحظ قد ألفه في شبابه ، لما يشتمل عليه من مرح وسخرية وفكاهة هادفة مما يكون عادة في سن الشباب . ولكن بعض النصوص الواردة فيه تدل على أنه ألفه وهو شيخ طاعن في السن وقد عاش الجاحظ (٩٥ عاماً) أو أكثر من مائة عام في رواية معتمدة موثوق بها .

والغالب المرجح أن الجاحظ ألف كتاب البخلاء في شيخوخة متقدمة جداً .

وللجاحظ كتب كثيرة أشهرها على الإطلاق بعد « البخلاء » :

● البيان والتبيين : وهو كتاب متخصص بعض الشيء لأنه يتحدث عن البلاغة العربية أو جماليات أدبنا العربي ويعتمد في تطبيق هذه المقاييس على بلاغة سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام . ونرى فيه لأول مرة بعض التعريفات والمصطلحات البلاغية .

● الحيوان : يتحدث فيه عن الحيوانات وطباعها ونواذرها وذكرها في الأدب العربي ويسيطر على هذا الكتاب أسلوب الاستطراد الجاحظي المعروف .

وبالنسبة في هذا المقام قد يسأل سائل لماذا غلب أسلوب لأستطراد : (بمعنى الخروج من الموضوع إلى موضوع آخر ثم العودة إليه) ، على كتابات الجاحظ ؟! وهل ذلك يحسب له أم عليه ؟!

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نجد أن البعض يميل إلى اعتبار الاستطراد ظاهرة غير صحيحة ، بل هي عيب من عيوب الأسلوب الجاحظي .

وفي الواقع أن الجاحظ نفسه دافع عن ذلك بل يعتبر هو نفسه أول من نبهنا لهذه الظاهرة في أدبه .

وبعيداً عن ذكر الفقرات والنصوص التي نبه فيها الجاحظ إلى هذه الظاهرة نوجز نحن أسبابها :

أولاً : لم يكن على أيام الجاحظ منهج علمي ملتزم للتأليف بمعنى أنه لم يكن هناك تقسيمات للكتاب أبواب ثم فصول أو مباحث أو هوامش أو إستدراكات .

ثانياً : الجاحظ موسوعي الثقافة ، لديه ثقافة واسعة في كل المعارف والعلوم والفنون وعندما يمسك بريشته فهو يكتب وتتداعى معلوماته بدون إرادته وهذه سمة كل أصحاب القراءات الواسعة .

ثالثاً : بالاستطراد كان الجاحظ يبعد الملل عن القارئ تماماً لأن القارئ عندما يقرأ في موضوع واحد بوتيرة واحدة ، جادة جداً ، قد يبعث في نفسه الملل وينحي الكتاب جانباً ، ولكن لو استطراد المؤلف ببعض الشروح والتفاسير والنوادر والملح والإيضاحات والأشعار والمأثورات لكان إنجذابه للكتاب أكثر .

قلنا إن للجاحظ مؤلفات عديدة وكثيرة في مختلف أنواع المعرفة ، ولعل البخلاء كان أيسرها جهداً ، فقد كتبه بتلقائية وعفوية واضحة ، واستقاه ممن عاشهم ، ومن الحياة البصرية

والبغدادية . ولم يرجع فيه إلى أى شئ من الكتب وبطون التاريخ . ومن الظواهر الفنية في نثر الجاحظ : الجدل والحوار وقد أتت هذه النزعة الجدلية في نثره من :

أولاً : نشأ الجاحظ في بيئة المعتزلة الذين يمجدون العقل ويعتدون به ، ويعتمدون عليه في إثبات آرائهم ودفع حجج خصومهم والرد على مناوئتهم ، وتلك تربة خصبة للتكوين العقلي القادر على الحجاج والمناظرة والجدل ، ومن هنا لم يكن غريباً أن تنشأ البلاغة العربية الأصيلة في هذه البيئة .

ثانياً : قرأ الجاحظ فلسفة اليونان وتأثر بمذهب السوفسطائيين منهم خاصة . وقد كان هؤلاء ينصبون أنفسهم معلمين لشباب أثينا ، يعلموهم البيان والقدرة على الجدل والمناظرة ، حتى يستطيعوا الدفاع عن حقوقهم أمام المحكمة .

وبعيداً عما قرره د . طه حسين في مقدمة « نقد النثر » فإن الجاحظ أصطنع هذا المنهج القوى في الجدل والمناظرة ، وأنه دل على مرونة اللغة وطواعيتها وتوجيهها في كل سبيل ، كما دل على مقدرة فائقة في تشقيق المعاني وتوليدها وقوة البرهنة عليها مع تناقضها أحياناً .

لقد افتن الرجل وأبدع . على يديه تلك المعاني والألفاظ ، فهي طيبة له في كل مجال وفي كل مذهب وعلى القارئ أن يلقى نظرة على قصة (تمام بن جعفر) واحد من بخلاء الجاحظ كان بخيلاً على الطعام مفرط البخل ، وكان يقبل على من أكل خبزة بكل علمه ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم .

لقد أحتج الجاحظ في هذه القصة للشئ وضده ، وكان يدور بالكلام بين المعنى ونقيضه . دون أن تكل قوته ، أو تفتقر حجته . أو يستعصى عليه لفظ أو يستغلق دونه معنى وتلك آية من آيات عبقريته وصورة من قوة بيانه وبلاغته . ونفته من نفثات اعجازه الذي خلده على الزمن محوطاً بآيات العظمة والفخار .

لهذا جاء البخلاء صورة حية لحياة أولئك الذين تناولهم ووصفهم في جدهم وهزلهم . إن قيمة هذا الكتاب (كتاب البخلاء) الحقيقية ليست مجرد القصص وحكاية النوادر ، بل هي فيما أورده من أراء في البخل وتصوير لعقليات البخلاء وحججهم وأحوالهم ، وكذلك في الموازنة بين هذه الحجج والحجج المضادة لهم تأييداً للجهود .

* أول من أهتم بنشر كتاب البخلاء المستشرق (فان فلوتين) سنة ١٩٠٠ م ونشرته دار (برل) بليدن الهولندية . ثم نشره سنة ١٩٠٥ م الحاج الساسي المغربي . ثم قامت وزارة المعارف

المصرية بنشره بتحقيق الأستاذين : أحمد العوامى ، وعلى الجارم سنة ١٩٣٨ . ونشرته بعد ذلك دار النشر العربى بدمشق السورية . ثم قام الأستاذ طه الحاجرى بتحقيقه ، وقامت دار الكاتب المصرى بنشره سنة ١٩٤٨ . ثم نشرته دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ .

واليوم ونحن نقدم « البخلء » للجاحظ لا نزعم أننا نقدم جهداً متفرداً لم يقدمه أساتذة أجلاء سبقونا إلى هذا المضمار ، إلا أننا وضعنا نصب أعيننا المخطوط الوحيدة الموجودة بمخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٦/أدب/ش) ويرجع خطها إلى سنة ١٣٠٣ هـ وتقع فى ٢٧٧ صفحة / قطع كبير وهى معتمدنا فى تحقيق البخلء — ثم قمنا بالآتى .

● نسخنا المخطوطة وطابقناها بكل الطباعات المشار إليها وخروجنا بعد النظر والمقارنة بأحسن صورة صحيحة .

● ضبطنا النصوص لغوياً ، ونحوياً ، واملائياً .

● شرحنا الكلمات الصعبة مع عدم الاستفاضة قدر الإمكان .

● ذكرنا مناسبة القصة وحاولنا ربطها بما قبلها أو بعدها .

● عرفنا بالأعلام والأماكن الواردة فى الكتاب قدر المستطاع دون تطويل ممل ، أو تقصير مخل .

● وضعنا عناوين مناسبة لكل قصة أو كل حكاية كى يسهل ذلك على القارئ عموم الفائدة - وفى وضع العناوين لم نقتصر فيها على عناوين كبيرة أساسية بل فرعنا منها عناوين أخرى يقتضيها السياق واعتقد أن ذلك أجدى وأفضل .

إن كتاب البخلء وثيقة نصية نتركها للقارئ كى يعيش مع الجاحظ وعصره : اجتماعياً ، وثقافياً ، وفكرياً ، وكى يحكم على عبقرية هذا الرجل التى لا مثيل لها بين كتاب النثر الفنى على عصره (*)

وفى نهاية هذا التقديم أرجو المولى سبحانه وتعالى أن يكون جهدى حاز قبول القارئ . كما أتوجه بالشكر والتقدير لكل من قدم لى يد العون والمساعدة كى يرى « البخلء » النور مرة أخرى . فى طبعة جديدة وتحقيق جديد .

(*) يلاحظ القارئ أنه ابتداءً من قصة (اسد بن جالى) يكثر الاستشهاد من جانب الجاحظ بآيات القرآن والأحاديث النبوية الطهرة والاشعار والمأثور من كلام العرب لذلك آثرنا الضبط الكامل قدر الإمكان بدءً من هذا الموضوع .

مقدمة المؤلف

* رَبِّ أَنْعَمْتَ فَرْد :

تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقت لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .
 ذكرت ^(١) - حفظك الله ! - أنك قرأت كتابي في « تصنيف حيل لصوص النهار » ، وفي
 تفصيل حيل سراق الليل ^(٢) . وإنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ^(٣) . وتقدمت
 - بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبتك عليه من غرائب الحيل - فيما عسى أن لا يبلغه كيد ^(٤) ،
 ولا يجوز مكر . وذكرت أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم في درسه واجب ، وقلت : اذكر لي
 نواذر البخلاء واحتجاج الأشحاء . وما يجوز ^(٥) من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب
 الجد . لا جعل الهزل مستراحاً ، والمزاحمة جاماً ^(٦) ، فإن للجد كدّاً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن
 التمس نفعه من مراجعته ^(٧) . وذكر ملح الحزامي ^(٨) واحتجاج الكندي ورسالة سهل بن هارون ،
 وكلام بن غزوان وخطبة الحارثي وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ولم سموا البخل
 اصلاً والشح اقتصاداً ، ولم حاموا على المنع ^(٩) ، ونسبوه إلى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة ^(١٠) ،
 وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفاً ، والأثرة ^(١١) جهلاً ، ولم زهدوا في الحمد ، وقل
 احتفالهم بالذم ، ولم استضعفوا من هش للذكر ^(١٢) ، وارتاح للبذل ، ولم حكموا بالقوة لمن
 لا يميل إلى ثناء ، ولا ينحرف عن هجاء ، ولم احتجوا بشظف العيش على لينه ، وبمره على
 حلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم ^(١٣) مع استنثارهم بها في رحال غيرهم ،
 ولم تتابعوا في البخل ، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفثهم من ذلك الاسم ، ولم رغبوا
 في الكسب مع زهدهم في الانفاق ، ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا

(١) يخاطب الجاحظ رجلاً لم يذكر اسمه . طلب منه أن يؤلف كتاب البخلاء

(٢) اسم كتاب للجاحظ لم أعثر عليه .

(٣) أى أنك أكملت به ما كان من نقص . وأنك بما استغدت من هذا الكتاب قد قويت مواقع الضعف .

(٤) وسبق غيرك بما استغدت من غرائب تلك الخدع والحيل في فهم ما يظن ألا يبلغه كيد الكائدين .

(٥) أى ما يدخل في ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، كى يحيل من الهزل وسيلة للراحة كما سبق .

(٦) الجمام هو الراحة التى بعدها يستأنف العمل .

(٧) مراجعته بمعنى الرجوع إلى الجد بعد الراحة .

(٨) الحزامي ، والكندي ، وسهل بن هارون وابن غزوان والحارثي كل هؤلاء من البخلاء وأنصار البخل وتحدث عنهم الجاحظ في

استغاضة .

(٩) حاموا على المنع بمعنى قصدوه وحرموا عليه . وهو من تحريم الطير على الشيء أى تدومعه حوله

(١٠) بمعنى عادوا مواساة المحتاج بالمال . (١٢) أى ارتاحوا للمدح والثناء .

(١١) الأثرة هنا بمعنى العطاء . (١٣) الرحال : المنازل والبيوت .

في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى . ولم وفروا نصيب الخوف ونجسوا نصيب الرجاء ، مع طول السلامة ، وشمول العافية ، والمعافى أكثر من المبتلى .

وليست الفوائد أقل من الجوائح^(١) . بل كيف يدعو إلى السعادة من خص نفسه بالشقوة وكيف يتحل نصيحة العامة من بدأ يغش الخاصة^(٢) ، ولم احتجوا - مع سدد^(٣) عقولهم - بما أجمعت الأمة على تقييده ، ولم فخروا - مع اتساع معرفتهم - بما أطبقوا على تهجينه^(٤) ، وكيف يفظن عند الاعتدال له ، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه إلى الغايات البعيدة ، والمعافى اللطيفة ، ولا يفظن لظاهر قبحه ، وشناعة اسمه وخمول ذكره ، وسوء أثره على أهله ، وكيف وهو الذي يجمع له بين الكبد وقلة المرفق^(٥) . وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب^(٦) وطول قلة الانتفاع . ومع علمه بأن وارثه أعدى من عدوه ، وأنه أحق بماله من وليه^(٧) أو ليس لو أظهر الجهل والغباوة ، وانتحل الغفلة والحماقة . ثم احتج بتلك المعافى الشداد ، وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار ، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج وأصابة الموضع - لكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذباً لم يظهر من جهله ونقصانه؟^(٨) ولم جاز أن يبصر بغفلة البعيد الغامض ، ويعيا عن القريب الجليل؟^(٩)

وقلت : فبين لى ما الشيء الذى خبل عقولهم وأفسد أذهانهم وأعشى تلك الأبصار ، ونقض ذلك الاعتدال ، وما الشيء الذى له عاندوا الحق ، وخالفوا الأئمة ، وما هذا التركيب المتضاد ، والمزاج المتنافى ؟ وما هذا الغباء الشديد الذى إلى جنبه فطنة عجيبة ؟ ، وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح ، وأدرك به الدقيق الغامض ؟ !

-
- (١) الجوائح هي التوازل المهلكة .
 - (٢) يتحل بمعنى يدعى ، ويقصد الجاحظ بغش الخاصة إيهامهم بأنهم على حق في مذهب البخل .
 - (٣) السدد هو سداد العقول وصوابها .
 - (٤) يعنى أنهم لم يتفخروا بما أجمع الناس على أنه ممجوج وقبيح .
 - (٥) أى قلة ما يرتفق ويتفق به ، يقول : وكيف يكون البخل فضيلة وهو يجعل صاحبه يجمع بين الكد في تحصيل المال وقلة الانتفاع به ؟ ! .
 - (٦) طول الاغتراب لكسب المال .
 - (٧) الولي هنا الوارث .
 - (٨) أى لعلم الناس أن ما أظهره من تلك الصفات ليس حقيقة وإنما تصنع وإدعاء .
 - (٩) والمراد بالبعيد الغامض مزايا البخل ، والقريب الجليل محاسن الكرم .

وقلت : وليس عجبى ممن خلع عذاره ^(١) فى البخل ، وأبدى صفحته للذم ^(٢) ، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم ولا من الاحتجاج إلا بما رسم فى الكتب ^(٣) ، ولا عجبى من مغلوب على عقله مسخر لاظهار عيبه ، كعجبى ممن قد فطن لبخله ، وعرف إفراط شحه ، وهو فى ذلك يجاهد نفسه ويغالب فى طبعه ، ولربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده ، فوه شيئاً لا يقبل التقوية ووقع خرقاً لا يقبل الرقع . فلو أنه كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه ، فطن لضغفه عن علاج نفسه ، وعن تقويم اخلاطه ^(٤) وعن استرجاع ما سلفت من عاداته ، وعن قلبه أخلاقه المدخولة ^(٥) إلى أن تعود سليمة ، لترك تكلف ما لا يستطيعه . ولربح الاتفاق على من يذمه ^(٦) ، ولم وضع على نفسه الرقباء ، ولا أحضر مائدته الشعراء ^(٧) . ولا خالط برد الآفاق ^(٨) ولا لابس الموكلين بالأخبار ولا استراح من كد الكلفة . ودخل فى غمار الأمة ^(٩) .

وبعد : فما باله يفتن لعيوب الناس إذا أطعموه ، ولا يفتن لعيب نفسه إذا أطعمهم ، وإن كان عيبه مكشوفاً وعيب من أطعمه مستوراً ، ولم سخت نفس أحدهم بالكثير من التبر ، وشحت بالقليل من الطعم ، وقد علم أن الذى منع يسير فى جنب ما بذل ، وأنه لو شاء أن يحصل بالقليل مما جاد به أضعاف ما بخل به كان ذلك عتيداً ^(١٠) ، ويسيراً ، موجوداً .

وقلت : ولا بد من أن تعرفى الهنات ^(١١) التى نمت ^(١٢) على المتكلفين ، ودلت على حقائق التمهوين ، وهتكت عن أستار الادعاء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين المقهور المتزجر ، والمطبوع المبتهل ^(١٣) لتقف - زعمت - عندها ولتعرض نفسك عليها ، ولتوهم ^(١٤) موقعها ، فإن نهك التصفح ^(١٥) لها على عيب قد أغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته فإن كان عيباً ظاهراً معروفاً عندك نظرت ، فإن كان احتمالاً فاضلاً على بخلك دمت على اطعامهم ، أو على

(١) خلع عذاره أى انطلق فى غيه دون حياء .

(٢) الصفحة الوجه ، والمعنى أنه واجه الذم ولم يبال به .

(٣) رسم فى الكتب : كتب فيها ، والمعنى أنه لم يأت بالحجة لتعزيز البخل إلا بما فى الكتب ليكون أبلغ فى الاحتجاج .

(٤) اخلاطه : العناصر التى يتكون منها مزاجه .

(٥) قلبه اخلاقه المدخولة بمعنى تحويلها والمدخولة التى دخلها عيب .

(٦) أى لما خسر المال الذى يتفقه على من يذمه اتقاء لسانه .

(٧) أى يمدحوه .

(٨) برد الآفاق : البرد جمع بريد ، ويقصد الرسل الذين يرسلهم إلى الأفاق لإذاعة أخبار كرمه .

(٩) دخل فى زحمة الناس كأى واحد منهم . (١٠) جمع هنة . وهى الخصلة المنومة .

(١١) عتيداً أى مهياً مسوراً . (١٢) أى دلت عليهم .

(١٣) المطبوع الذى هو على سجيته ، والمبتهل المطلق غير المقيد .

(١٤) التوهم هنا بمعنى التبين . (١٥) التصفح هنا أى فحصها واحدة واحدة .

اكتساب المحبة بمؤاكلتهم . وإن كان أكثرائك غامراً لاجتهادك سترت نفسك ، وانفردت بطيب زادك ودخلت مع الغار ، وعشت عيش المستورين . وإن كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالاً ، وكانت أسبابكما أمثالاً وأشكالاً^(٤) ، أجب الحزم إلى ترك التعرض^(٥) ، وأجب الاحتياط إلى رفض التكلف^(٦) ، ورأيت أن من حصل السلامة من الدم ، فقد غنم ، وأن من آثر الثقة على التفرير^(٧) فقد حزم .

وذكرت : أنك إلى معرفة هذا الباب أحوج ، وأن ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر . وأنى إن حصنت من الذم عرضك بعد أن حصنت من اللصوص مالك^(٨) ، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار ، ولا أم رؤوم .

وسألت : أن أكتب لك علة الجهجاه^(٩) في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقييح الصدق في مواضع ، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفي خط الصدق إلى موضع الكذب ، وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه ، وتذكر مثالبه ويحاربون الصدق بتذكر منافعه وبتناسي مضاره ، وأنهم لو وازنوا بين مرافقها^(٧) ، وعدلوا بين خصالها لما فرقوا بينها هذا التفریق ، ولما رأوها بهذه العيون .

ومذهب صحصح^(٨) في تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة ، وأن عيش البهائم أحسن موقعاً من النفوس من عيش العقلاء ، وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلاً ذا مروءة ، أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة . لكان الشحم إلى البهيمة أسرع ، وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، لأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ، ولأن الغباء مقرون بفرار البال والأمن . فلذلك البهيمة تقنو^(٩) شحماً في الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لدى الهمة البعيدة متوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل في الرخاء إلى أن يدركه البلاء . ولولا أنك تجد هذه الأبواب^(١٠) وأكثر منها مصورة في كتابي الذي سمي كتاب المسائل ،

(١) حجاج كل منكأ أنت وطباعك ، وأمثالاً وأشكالاً يعني متعادلة . (٢) التعرض للدم .

(٣) تكلف الكرم أي أنك تسلك سبيلاً وسطاً بين البخل والكرم .

(٤) التفرير المراد تعريض المال للهلاك .

(٥) أي بما يسهل لك في كتابي وفي تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفضيل حيل سراق الليل .

(٦) الجهجاه : رجل يرى أن الكذب يحسن في بعض الأحوال والصدق يقيح في مواضع .

(٧) أي لو وازنوا بين ما يحتاج إليه من كل من الصدق والكذب .

(٨) صحصح هذا رجل يرى تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، وأن الغباء أنفع من الفطنة ، وأن عيش البهائم أحسن موقعاً من النفوس من عيش العقلاء .. إلخ . إلخ .

(٩) تقنو بمعنى تجمع شحماً في الأيام اليسيرة .

(١٠) أي هذه الأبواب ويعني بالأبواب الأمور السابقة التي طلب السائل من المؤلف أن يوضحها ويبينها .

لانتيت على كثير منها في هذا الكتاب .

فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء ، فسأوجدك ذلك في قصصهم - إن شاء الله تعالى - مفرقاً ، وفي احتجاجهم مجعلاً ، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندى دون ما انتهى إلى من أخبارهم على وجهها ، وعلى أن الكتاب : أيضاً يصير أقصر ، ويصير العار^(١) فيه أقل .

ونبتدى برسالة سهل بن هارون ، ثم بطرف أهل خراسان ، لاكتار الناس في أهل خراسان^(٢) .

ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت في ضحكك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد .

وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبة إذا وافق الموضع ولم يتجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة^(٣) ، ودليل على الرقة . والبعد عن القسوة ، وربما عد من الوفاء ، وشدة الوجد على الأولياء^(٤) . وهو من أعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون .

وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له : لا تجزع ، فإنه أفتح لصوته ، وأصبح لبصره .

وضرب عامر بن عبد قيس^(٥) يده على عينه فقال : جامدة شاحصة لا تندى ! وقيل لصفوان بن محرز^(٦) عند طول بكائه وتذكر أحزانه : إن طول البكاء يورث العمى ، فقال : ذلك لها شهادة ! فبكى حتى عمى . وقد مدح بالبكاء ناس كثير ، منهم يحيى البكاء ، وهيثم البكاء ، وكان صفوان بن محرز يسمى البكاء . وإذا كان البكاء - ما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء ، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع وشبه بالأمّة اللكماء^(٨) . وبالحديث الضرع^(٩) - كذلك ،^(١٠) فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عن سببه ؟

ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى

(١) المقصود بالعار ما يذكر عن البخلاء .

(٢) أى لكثرة ما يتناقل الناس من أخبارهم أخبار أهل خراسان .

(٣) أى لكثرة ما يتناقل الناس من أخبارهم أخبار أهل خراسان .

(٤) أى لكثرة ما يتناقل الناس من أخبارهم أخبار أهل خراسان .

(٥) ابن عبد القيس رجل من الأخبار ، يقال أن عبد الله بن عامر نفاه للشام بأمر من عثمان بن عفان وتوفى بها .

(٦) صفوان بن محرز اعتبره الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) من بين النساك والزهاد من أهل البيان .

(٧) أى أن العمى يشهد بحزنه .

(٨) أى أن العمى يشهد بحزنه .

(٩) أى أن العمى يشهد بحزنه .

(١٠) أى أن العمى يشهد بحزنه .

والقصر المبني كأنه يضحك ضحكاً . وقد قال الله جل ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴾^(١) فوضع الضحك بخذاء الحياة ووضع البكاء بخذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص .

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب^(٢) . لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه . ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وبسام وبطلق وبطليق . وقد ضحك النبي ﷺ وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا وإذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن وبسام العشيات^(٣) وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز^(٤) ، وإذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح ، وهو قطوب وهو شتم الحيا وهو مكفهر أبداً . وهو كرية ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح .

وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ومتى جازهما^(٥) أحد وقصر عنها أحد ، صار الفاضل خطلاً^(٦) ، والتقصير نقصاً . فالتناس لم يعيبوا الضحك إلا يقدر . ولم يعيبوا المزح إلا يقدر . ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك ، صار المزح جدّاً والضحك وقاراً .

* * *

وهذا كتاب لا أغرك منه^(٧) ولا أستر عنك عيبه ، لأنه لا يجوز أن يكمل كما تريده ، ولا يجوز أن نوفي حقه كما ينبغي له لأن هاهنا أحاديث كثيرة متى اطلعنا منها حرفاً^(٨) وعرف أصحابها وإن لم نسهم ولم نرد ذلك بهم ، وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم . منهم : الصديق ، والولي^(٩) ، والمستور والمتحمل^(١٠) . وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم فهذا باب يسقط البتة ، ويختل به الكتاب لا محالة . وهو أكبرها باباً وأعجبها منك موقعاً - وأحاديث أخر ليس لها شهرة . ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هي مفيدة أصحابها . وليس يتوفر

(٢) أساس التركيب النفس للإنسان .

(١) النجم : ٤٣ .

(٣) بسام في العشيات . كتابة عن الكرم وترحيبه بالضيوف إذا حضروا لتناول العشاء عنده .

(٨) جانباً .

(٤) بمعنى أنه يسريج ويهتر سروراً للضيف .

(٩) الولي هو الناصر ، المزيد .

(٥) جازهما أى تجاوزهما .

(١٠) المستور المتحمل هو الظاهر على غير حقيقته .

(٦) الفاضل هو الزائد ، والخطل هو الحمق .

(٧) لا أنجلك فيه حالاً على غير هدى .

أبدًا حسنًا إلا بأن يعرف أهلها ، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادتها واللائقين بها . وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب شطر النادرة . ولو أن رجلاً أُلِّقَ نادرة بأبي الحارث جمين ، والهيثم بن مطهر ، وبزيد . وابن أحمر^(١) ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون . ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها . ثم أضافها إلى صالح بن حنين ، وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ولصارت فاترة فإن الفاتر شر من البارد .

وكما أنك لو ولدت كلامًا في الزهد وموعظة للناس ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبدالله المزني . وعامر بن عبد قيس العنبري ، ومؤرق العجلي ، ويزيد الرقاشي^(٢) لتضاعف حسنه ، ولا حدث له ذلك النسب نصارة ورفعة لم تكن له ولو قلت : قالها أبو كعب الصوفي أو عبد المؤمن ، أو أبو النواس الشاعر أو حسين الخليل^(٣) لما كان لها إلا مالها في نفسها ، وبالحرى أن تغلط في مقدارها ، فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها . وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم ، ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته^(٤) ولما وضعت كلامي موضع الضيم والقيمة ، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك ، وإن كان عذر فلي دونك .

* رسالة سهل بن هارون^(٥)

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير . وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس^(٦) : يا معشر بني تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة . فإن أسرع الناس إلى القتال ، أقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيابًا : فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى عن مرشد^(٧) وتغري بمشفق^(٨) . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم ، وتقويمكم وإلّا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم ، ولن

(١) الأربعة من أصحاب النواذر والفاكاه والمزاح .

(٢) الأربعة من المجان .

(٣) تكلفته أى ألّفته على مشقه .

(٤) كتبنا إلى محمد بن راهبون إلى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتبعوا كلامه في الكذب أى التي يكتبها في موضوع البخل ومدحه . ويمكن لنا اعتبار هذه الرسالة هي الفصل الأول من الجلاء .

(٥) اسمه الضحاك أو صخر . وكان يضرب به المثل في الحلم والسيادة . وفد على عمر بن الخطاب في وفد من قومه . وشهد صفين ومات معمرًا في ٦٩ هـ .

(٦) عن مرشد أى عن اتباع مرشد .

(٧) أى تخوض الناس على المشفق الرحيم .